

عود الى محمد اقبال

للدكتور عبد الوهاب عزام

أقص عليك من أنبائه عبرة ، فأطوى بستاناً في زهرة :
ورد لاهور شاب من أهل مرو مرير القوى ، فأمّ حضرة
السيد الرفيع ليقتشع بشمسه ظلمات نفسه .
قال : ياسيدي أحاط بي الأعداء الفجار ، فأنا منهم كزجاجة
بين أحجار ؛ فعلمني ياذا السنا والسناء ، كيف العيش بين
هؤلاء الأعداء .

قال المرشد العليم الذي ائتلف في نفسه الجمال والجلال :
يا جاهلاً بأسرار الحياة ، وغافلاً عن مبدئها ومنتهائها ؛ افرغ
من همّ غيرك ، وأيقظ القوة النائمة في نفسك . إن الحجر الذي
يتوهم نفسه زجاجة بين الأحجار ، ينقلب زجاجة غايتها الانكسار .
ومتى ظن المسافر الضعف بنفسه ، فقد أسلم لقاطع الطريق روحه .
حتّام تعدّ نفسك طيناً وماء ؟ أخرج من طينتك شعلة الطور
ناراً وضياء . ما ذا التكبر على الأصدقاء ، وما هذه الشكاة من
الأعداء ؟ لا ريب أن عدوك صديقك ، وأن وجوده رونق حياتك .
كل من وعى مقامات الذاتية يحمد الله كلما ألنى عدوه في قوة .
العدو من الانسان كالسحاب من الأرض ، يغشاها ، فيوقظ من
سباتها قواها . وإن حجر الطريق ليسيل كالماء ، أمام الهمة القعساء .
وما السهل والحزن أمام السيل المنهمر ، عقبة الطريق مسنّ لسيف
العزم ، وقطع المراحل اختبار لهذا السيف ، ما العيش في أكل
ودعة كالحيوان الأعجم ؟ وما غناء الحياة وأنت في نفسك غير محكم ؟
حصّن نفسك بالذاتية يسخر لك العالم كله . تجرد من نفسك
إن ترد الفناء ، واعتصم بنفسك إن تبغ البقاء . هل الموت إلا غفلة
عن الذاتية ؟ وهل افتراق الروح والجسم إلا هذه المنية ؟ اتخذ من
نفسك مستقراً لتنجو من الهلك ؛ ثم امض قدماً - كيوسف -
من الاسار الى الملك . تفكر في الذاتية وكن رجل الجلال السباق
الى الغايات ، كن رجل الحق الملىء بالآيات . هأنذا أشرح بالقصص
الأسرار ، وأفتح بالنفحات أكمام الأزهار . « خير أن يأتي سر
الأحباب حديثاً في قصص الآخرين » (١)

« قصة الطائر الذي أنزله العطش »

بلغ العطش من طائر جهده ، فاضطرب نفسه موجة من الدخان
في صدره ، فأبصر في بستان شذرة من الماس الوضاء ، فخيل اليه
العطش أنها ماء . وخدعت الطائر المجهود هذه الشذرة المتلألئة

(١) هذا البيت مقتبس من مولانا جلال الدين

كتبت في الرسالة عام أول طرفاً من أخبار شاعر الهند
العظيم ، وفيلسوف الاسلام النابغة الدكتور محمد اقبال ، وترجمت
نبدأ من ديوانه « ييام مشرق » . ولاقبال كتاب اسمه « أسرار
خودي » ، وهو كتاب منظوم شرح فيه « أسرار خودي » أي
أسرار الذاتية ، فيبين بأسلوب شعري رائع أن حياة الانسان
والأمة في تقوية النفس ، واستخراج كل ما فيها من قوى ومواهب ،
وأن الهلاك أن يغفل الانسان عن فطرته ، ويردّ آراء الناس ،
ويحاكي أعمالهم . الخ

ولاقبال كتاب آخر اسمه « رموز بيخودي » أي رموز
اللاذاتية ، يبين فيه كيف يؤلف الانسان نفسه القوية في الجماعة
ساعياً الى المقاصد العامة . والكتابان منظومان في بحر الرمل على
القافية المزدوجة .

وسيرى القارى في هذا المقال وما يليه نبذاً من الكتابين ،
على أن قارى هذه الترجمة العربية المنشورة يفوته كثير مما يحس به
قارى شعر اقبال في لغته .

وفيا لى قطعة من أسرار خودي :

« قصة شاب من مرو ذهب الى السيد العظيم على السهجوبرى (١)

فخط اليه ميف أعدائه عليه » :

سيد هجوبرى قبلة الأم الذي صار مرقده حرماً في پيرسنجر ،
جانب الأقطار ، وقطع سلاسل الجبال ، وبذر في أرض الهنود
بذور السجود ؛ فجدد عهد الفاروق بجماله ، ورفع صوت الحق
بجداله ؛ عزّت « أم الكتاب » بحماسته ، وخربت دار الباطل
بنظرة ، وحيّت أرض البنجاب بأنفاسه ، وتلاّأصبحنا بشمسه ،
عاشق وهو رسول للعشق سيار ، تتجلى من جبينه للعشق أسرار .

(١) أحد كبار الصوفية في القرن الخامس الهجرى ؛ طوف في الأقطار
الاسلامية ثم استقر في لاهور حيث مات سنة ٤٦٥ هـ . وله مؤلفات في التصوف
أسيرها « كشف المحجوب »

الأقدام ، وغايتي أن أكون طعام النيران . إنها حياة جديرة
بالبقاء ، فما وجودي إلا هباء ؛ موجة من الدخان مركومة ،
وأما أنت فكالنجم وجهك وسيمتك تفيض بالنور كل جوانبك .
فأنت حيناً قرة عين قيصر ، وأخرى حلية في مقبض الخنجر .
قال الماس : أيها الرفيق البصير إن التراب الأغبر اذا نضج
فهو جوهر ، وأنا ما زلت أجالد ما حولي حتى أنضج الجلالد نفسي ،
فانقلبت صلباً كاللحجر ، مضيئاً كالنجم ، وامتلاً صدري بهذه
التجليات . وأنت من حياتك النيئة ذليل ، محترق من رخاوة
بدنك العليل ، فرغ من الخوف والغم فؤادك ، وانضج كالصخر
وكن ماساً بمجهاذك . فكل من جاهد في الحياة صبوراً ، يملأ العالمين
نوراً . إن الحجر الأسود كان تراباً بالتكريم غير خليق ، فصار حلية
في صدر البيت العتيق ، فاق الطور رفعة وصعد ، حتى صار مقبل
الأحمر والأسود .

إن في الصلابة ماء الحياة وسر البقاء ، وإن في النيوة الهوان
والضعف والفناء .

عبد الوهاب عزام

تسلم خضير

١٠٥٧
١٠٥٧



١٠٥٧
١٠٥٧

بريشة ذهب عيسار ١٤

مضمون ٣ سنوات

لست تعلمه الحكيم كومان شرقية
مكتبه دة طبة خضير بشارع عبد العزيز بصر

كالشمس ، فتوهم الحجر الصلب ماء سائلاً ، وغره من هذا
الجوهر بريقه فضرِب بمنقاره فلم تنقع غلته . قالت الماسة : أيها
الطائر المسحور ! لشدّ ما ضربت بمنقار الغرور ؛ لست قطرة من
الماء ، ولا شربة للظماء ، ليست حياتي من أجل غيري . إن محاولة
التقاطي جنون وغرور ، وغفلة عن الحياة الذاتية الطهور ، إن
مائي يكسر من الطير منقاره ، ويصدع من الانسان جوهر روحه .
خاب أمل الطائر فأعرض عن هذه الشذرة الوضاعة ، وانقلب
الأمل في صدره حشرات ، واستحالت أنيناً هذه النغبات . ثم
بصر بقطرة من الطل على فنن من الورد ، تتلألاً كدمعة في عين
البلبل^(١) ، ضياؤها استغرق في حمو الشمس ، وهي من جوف
الشمس في رعدة . كوكب خفاق ولدته السماء ، فلبث لمحة في نشوة
الظهور والضياء ؛ وخدعته ألوان الأكمام والأزهار ، فلم يأخذ من
الحياة نصيباً ، كدمعة العاشق العليل ، زانت الهدب لتسيل .
ويسرع الطائر الى فنن الورد فيلتقط قطرة الندى .

أيها المبتغى نجاة من الأعداء ! خبرني أجوهر أنت أم قطرة
من ماء ؟ ألم تر الى الطائر حين أذاب العطش مهجته كيف وقى
بحياة غيره حياته ؟ لم تكن القطرة في صلابة الجوهر ، ولكن
كانت الماسة صلبة المكسر . فلا تغفل عن حفظ الذاتية لمحة ،
وكن قطعة ماس لا قطرة . كن ناضج الفطرة راسخاً كالجبال ،
وتحمّل بحاراً من السحاب المظالم . وجِدْ نفسك بقوى نفسك ،
واستحل فضته بجمود زئبقك . أظهر نعمة الذاتية من أوتارها ،
وتجلّ للناس بأسرارها .

« قصة الماس والفحم »

وهذا حديث آخر يفتح لك من الحقيقة باباً :

قال الفحم للماس وهما في المعدن : يا من أودعت هذا التجلي
الأبدى ! نحن رفيقان ، وفي المنشأ صنوان ، وهأنذا أموت في معدني
ذلة ، وأنت تعلو تيجان الملوك غزاة ، وقدرى من سوء الجبلة
دون الحصاة ، وجمالك يصدع قلب المرأة . يضىء بظلمتي الجمر
الوقاد ، فاذا غاية جوهرى هذا الرماد . منزلتى من الناس مواطئ

(١) البلبل في الشعر الفارسي عاشق هائم بالورد